ما دام يزيد اللبن واللبن من اعظم حاجات الناس وفي زيادته منافع جمة ثم ومن الحقائق التي يجب تذكرها ان في اللبن الذي تدرُّهُ البقرة الشبعانة في سنة من البروتيين ما في لحمها كلِهِ وفيهِ من وحدات الحرارة ضعفا ما في لحمها ونصف ضعف . انتهى ما ورد في التقرير الذي عرض على البرلمان الانكليزي

(وسنخصص في العدد القادم بقية هذه الخطبة المفعمة بالفوائد في الطعام والتغذية والزراعة وتربية المواشي)

في دومة الجندل

« تابع ما قبلهُ »

— ٦ —

وفي دومة من الصناعة حياكة العباءات المشهورة بالجوفية وصناعة السيوف واغمدتها المفضضة والمذهبة . و يأتي الى الجوف تجار من دمشق و بلدة قبية من العراق . وفي سكاكة نحو من عشرين تاجراً شيعيًّا من النجف وغيرها يبيعون للبدو الثمن (الارز) والاقشة والتمور و يشترون السمن والاغنام والحبر ليرسلوها الى العراق . وفي الجوف قاضٍ لا يعرف سوى بعض مسائل فقهية وهو اعشى البصر لا يستفيد من الكتب الجمة الموروثة عن سلفهِ شيئًا فان الكتب موجودة في صندوق كبير بعضها مخطوط و بعضها مطبوع في مصر او الهند وقد اكل منها الارضة والغبار ما لم يأكل منها الليل والنهار واكثر تلك الكتب عافٍ عن مؤلفات قامع البدع والخرافات الامام ابن تيمية وتلميذهِ الامام ابن القيم وقد كتبت باسماء هذه الكتب القيمة جريدة ضاعت مني بضياع رحلتي المطوَّلة

وللامير نواف ولد يقال لهُ سلطان جاوز العقد الاول من عمرهِ وهو في منتهى الذكاء علمتهُ شيئًا من تاريخ قومهِ العرب وما كان لهم من مجد وحضارة والى اية درجة انحطوا اليوم وتدل الفراسة على انهُ سيكون لهُ في جزيرة العرب شأن كبير . وهو يتعلم كسائر الفتيان الفروسية و يتعود ركوب الخيل مسرجة واعراء وما من عربي الا و يحسن الركوب على الخيل عارية بلا رُكُب (جمع ركاب) . وكانت الشعوبية تعيب العرب بذلك واظن شعوبية هذا العصر قد رجعوا لرأي العرب لان فن الفروسية الحديث قد جعل من وسائل

الثقافة بالفروسية امتطاء الجياد اعراء لما تؤثره في انماء العضلات الضامرة في الانحناء ثم ان العرب لم تستعمل الركب الا في ايام الازارقة وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « لا تخور قوى ما كان صاحبها ينزو او ينزع » اي لا تهن قواه ما دام ينزو في السرج من دون استعانة بركاب وما دام ينزع في قوسه

وثروة الجوفيين من النخيل وهم يتعهدونه بالري والخدمة على الدوام والنخل طويل الجذور جداً وقد يستغني عن الماء مدة طويلة وله جلد على تحمل غمره بالماء مدة شهرين كما يحصل في البصرة والارض السطحية في سكاكة رملية ولكن جذور النخيل الطويلة تخترق الطبقة الرملية الى الطينية الصفراء كالنخل السماني في رشيد مصر فان ارضه رملية بحتة . وقد راعني منظر نخيل الجوف البهيج عند وصولي فقلت هذين البيتين :

لعمري لقد زرت الديار واهلها وطفت بها حتى دعيت بطواف
فلم أر مثل الجوف يزهو بنخله ولم ار فيها حاكاً مثل نواف

لم اشعر ذات يوم الا واخي الجلال الشهيد يبشرني قبيل الظهر بقدوم بعض الاخوان فاطللت من النافذة على ميدان قصر الامارة واذا بجمال تناخ بمجموعة فهرولنا الى الميدان فاذا نحن بالامير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وتوفيق الباط احد ضباط الاحتياط والشاعر البيروتي عمر حمد فبعد المقابلة والتقبيل اخذناهم الى غرفتنا الخاصة التي امدها لنا الامير نواف وطفقوا يحدثوننا رحمهم الله عما لقوه في هربهم من النصب والشقاء والاهوال وكذلك فعلنا نحن بان قصصنا كلانا عليهم ما قاسى من المتاعب حتى نجا من المعاطب

وحدثني الامير عارف انهم استجاروا في بادية امرهم بالمعاوشة من الدروز فاجاروهم وقد بثت الحكومة التركية عليهم العيون واخرجت لالقاء القبض عليهم الجنود وكانوا ينتقلون برأي الدروز من مخبإ الى آخر . ونشرت الحكومة في جبل حوران الاعلانات تنذر بها الاهلين باشد العقاب يقع على من تجدهم في داره ورغبتهم بالجائزة المالية ينالها من يطلع الحكومة على مقرهم . وقد قال لي الامير الشهيد ان كثيراً من فقراء الدروز الباقين كانوا عالمين بهم ولم يخبر الحكومة احد بمقرهم مع عوزه الشديد . وقد اضطروا ان يختبئوا مدة بالجبا فاتفق ان نفري باشا حاصره بجنوده واحدق به من كل جانب ولو لم يحاطوا ليلاً باختراق نطاق الجنود لوقعوا في قبضته وما وجدوا الى الفرار سبيلاً

اخبرني الامير نواف انه لما اجتمع في شوال سنة ١٣٣٣ بجمال باشا ونفري باشا في

القنيطرة اخبره نفري باشا على حدة انهُ يريد ان يهاجم الجا بيد أنهُ يخشى ان يساعد الدروز عرب الجا ولهذا يريد نفري ان يعينهُ في حملتهِ . قال لي نوّاف ولكي اخلص من مكيدتهِ ولا اشارك تركيا في اذلال العرب اشرت عليهِ بان الاولى ان انزل بعربي جنوبي حوران حتى اذا رأيت الدروز هبطوا الى الجا لمساعدة اعرابها حملت عليهم فينشغلون بي واكفّهم عما يريدون وبهذه الحيلة البدوية كفاني الله شرهُ واعتصمت بالبادية وما زلت اجوبها حتى بلغت الجوف

نصحت ورفيقي المرحوم جلال الدين لاخواننا الفارين بان لا يذكر احد منهم للامير نوّاف حقيقة حالهِ وانهُ محكوم عليهِ بالاعدام وليفعل كما فعلنا قائلاً انهُ جندي بسيط لم يحتمل مشاق الجندية واهانتها فلاذ بالفرار . وذلك لان الامير نوّافاً يخشى جواسيس ابن الرشيد ان تخبر حكومة دمشق فتتوتّر العلائق بينهُ وبينها ولا يقوى وحدهُ قبل قيام الشريف على محاربتها وعربهُ الرولة مضطرون ان يتاروا حبوبهم من حوران ويشتروا البستهم من دمشق والاّ فانّا عرفنا روح نوّاف جد المعرفة وانهُ يبغض الاتراك من صميم فؤادهِ لمساعدتهم عدوهُ اللدود ابن الرشيد بالسلاح والمال

قابل الامير نوّاف الاخوان بالترحاب وبعد مدة بعث اليّ رسولاً لمقابلتهِ وقال لي : علمتُ من صاحب العباءة المطرّزة (يريد عبد الغني العريسي) انهُ صاحب جريدة المفيد ومحكوم عليهِ كسائر صحبهِ بالاعدام فصلحتي تقضي عليّ ان يسافروا من الجوف وان تعلم ان ليس ذلك بخلاّ مني اذ في كل ليلة يأكل على مائدتي خلق من الضيوف كثير . ولما علمت اصرار الامير عدت الى الاخوان واطلعتهم على جلية الامر فاستاؤا كثيراً ولاسيما الامير عارف رحمهُ الله شاكين نفاد دراهمهم فرجعت الى الامير نواف وقلت انهم قصدوا ابا سلطان (كنية نواف) من دمشق فلا يليق ان يضاموا وقد قلّت دراهمهم وكلّت رواحلهم والطريق مخيف بعيد الشقة وهم بلا دليل فكيف يسافرون ؟

اجابني اني ارضخ لهم بما يسد عوزهم من الدراهم وابدل لهم الراحلة الضعيفة وازودهم بالزاد الكافي وارسل معهم الدليل المجرّب فليكونوا مطمئنين . وهكذا رجعت واخبرت الاخوان بما قالهُ الامير فهدأ روعهم وعزموا ان يرحلوا الى الحجاز فقلت لهم الاولى ان تسيروا الى العراق وتلبسوا الالبسة الرثة وان تبذلوا جهدكم بالتفرّق لان اجتماعكم يوجه انظار البدو واطماعهم اليكم وقد رأينا بالتجربة ان الوحدة في البادية المخيج للقصد وأنجى

فقال عبد الغني قد اتفقنا في دمشق والامير فيصل على القيام اليهِ ولذلك وجهتنا الحجاز ومقصدنا الامير فيصل اما الامير عارف فكان يخالفهُ في بعض هذا الرأي

للترك في وسط جزيرة العرب مخفر بدوي عثماني وهو للامير سعود بن عبد العزيز الرشيد صاحب حائل (قاعدة نجد) الذي اتفقت عليهِ ألسنة البدو انهُ يأتمر باوامر اخوالهِ السبهان فاضاع قسماً كبيراً من امارتهِ وانقلبت عليهِ بعض قبائل شمّر وشيوخها كابن طوالة فكنت ارى ان من مصلحة الجزيرة والعرب ان يدمر هذا المخفر المقبر فأغريت الامير نوّافاً كثيراً باكتساح حائل بنفسهِ او باتفاقهِ مع الامير ابن السعود العنزي مثلهِ . واتفق مرّة ان طلب مني نواف ان استفتح لهُ بالقرآن فاخذت المصحف وفتحتهُ بعد قراءة الفاتحة فخرجت آية «واصبر فان العاقبة للمتقين» . فقرأتها لهُ قائلاً : اصبر يا نوّاف فستفتح حائلاً فالعاقبة للمتقين امثالك . ونظمت بعد ذلك قصيدة نونية ضمنتها جميع غزواتهِ واشرت لهُ فيها بالاستفتاح ومطلعها :

غيري يميلُ لشرب بنت الحان ... واضرب اوتار وعزف قيان

ومنها

اصبر فعقبى المتقين جميلة ... قال الاله اليك بالقرآن

ايام تفتح حائلاً ويتيلك الـ ... ـروم حين ملكاً ثابت الاركان

فتذل قوم ابن الرشيد ورهطهُ ... وتدير دائرةً على سبهان

وبعد مدة سافر الاخوان مع دليلٍ شراري ولم نسمع لهم خبراً الاّ بعد نحو شهر اذ رجع الدليل بكتاب بخط الامير عارف رحمهُ الله شارحاً ما لقوهُ من المصاعب وان شهاباً شيخ عرب النفير الذي اخذوا لهُ كتاب وصية من الامير نوّاف وعدهم بإيصالهم الى المدينة بالسكة الحديدية بحماية احد عبيدهِ ويركبون القطار من محطة مدائن صالح القريبة من مخيم عرب النفير

وممن فرّ الى الجوف احمد مريود شيخ جبالة الخشب من قرى جبل الشيخ وذلك ان احد الاسافل الذين احسن اليهم كتب الى الحكومة تقريراً بانهُ يهرّب القمح الى الانكليز كذباً وبهتاناً . وقد اوعز نوّاف ايضاً اليهِ بالسفر فاقتفى آثار الاخوان السابقين وسار معهُ خالهُ والمرحوم جلال الدين . ولقد بكيت امراقهم بكاء مرًّا لم ابكِ في حياتي مثلهُ لاني كنت شاعراً بخطر سفرهم هذا . وقد خيرني الامير نواف بين الاقامة لديهِ وبين السفر الى العراق فاخترت الاخير . وقبل سفري من سكاكة بلغني القاء القبض على عبد الغني

العريسي وصحبهِ في مدائن صالح ورجوع الاخ جلال ورفيقيهِ الى الجوف بحالة يرثى لها بعد ان عملوا بالقاء القبض على اخوانهم المرحومين وارسلوا اليَّ خبرَ بانهم ذاهبون الى الامير نواف المتبدّي وقد رجعوا الى رأيي بالاعراق وان الملتقى البصرة ان شاء الله

ثم نعت لنا جريدة المقطم وانا يومئذٍ في البصرة المرحومين الامير عارفاً الشهابي ورفقاءهُ الثلاثة وانهم اعدموا في بيروت شنقاً . والمشنقة كما تقول عامة سورية « مرجوحة الابطال » وقد التي القبض عليهم في مدائن صالح كما ذكرنا رحمهم الله . وبلغني وانا في مكة ان المرحوم جلال الدين واحمد مريود وخالهُ بعد ان اجتمعوا في البادية بالامير نواف اشار عليهم بان يسيروا معهُ الى ابيهِ النوري وعند وصولهم الى مضربهِ وجدوا فيهِ الامير طاهراً الجزائري فارّاً من الحكومة . قال الراوي وان هؤلاء المسجونين ترجوا من النوري الشملان أو ان نوري اشار عليهم بما لهُ من الدالة على جمال باشا ان يطلب لهم العفو منهُ فيرجعوا الى اوطانهم وانهُ ابقاهم في قرية عذراء (عذرة) ونزل الى دمشق وقابل الباشا فاقسم لهُ يميناً غموساً و بالشرف العثماني العسكري انهُ لا يمسهم بسوء وارسل عربة وثلة من رجال الدرك الى عذراء رجعوا منها بالفارين في العربة وقد احدقوا بها حتى بلغوا دمشق فوضعوهم في مكان محفوظ و برّ جمال ليمينهِ مدة اقامة النوري في الفيحاء . وبعد سفرهِ منها حكم الديوان العرفي على الامير طاهر بالسجن في القلعة عشر سنين وعلى المرحوم جلال الدين البخاري بالاعدام شنقاً في بيروت زعماً انهُ قد شوّق البدو الى الثورة وترك احمد مريود البريء كاخوانهِ لعدم ثبوت الدعوى عليهِ

لقد احترق وذمة العرب قلبي على صديقي ورفيقي الجلال الشهيد الذي كان في مطارح النوى والتعاسة يؤانسني و يسليني و يتوجع لي

فياعين جودي بالبكاء على اخي الـ ... وفاء جلال الدين لا تذخري وسعا
لقد كان يرجى في الشدائد نفعهُ ... وقد قلَّ ان يجدي بهـا احدٌ نفعا
وفيٌّ ذكيٌّ مخلصٌ قد عهدتهُ ... سريعاً لنـاتي المكرمات مني يدعى
سقى الله قبراً قد رعى العهد ربُّهُ ... وحيّا الحيا ذاك الجلال الذي انعى

للرحلة صلة عز الدين آل محي الدين